إشكالية تعامل طلاب العلوم الإسلامية مع كتب التراث

و آثار ذلك على تحصيلهم العلمي وبحوثهم الأكاديمية

أ.د/ محمد بوركاب

الملتقى الوطني الموسوم بـ:

الدراسات الأكاديمية في العلوم الإسلامية في الجزائر : الواقع والمأمول

تنظيم :

كلية العلوم الإسلامية بباتنة / مخبر الفقه الإسلامي ومستجدات العصر

بالتنسيق مع قسم الشريعة

27 أكتوبر 2025 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إشكالية تعامل طلاب العلوم الإسلامية مع كتب التراث وآثار ذلك على تحصيلهم العلمي وبحوثهم الأكاديمية

المقدمة:

الحمد لله الذي رفع صفوة عباده بالعلم درجات، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على أشرف المرسلين وإمام المعلمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنّ أعظم وظيفة على الإطلاق هي التعليم، لأنّه وظيفة الأنبياء والمرسلين وهو المقصد الأساسي من بعثتهم لقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران:164] وقول النبي ﷺ : « إنّما بعثتُ مُعَلّما » فحصر وظيفته في التعليم.

فالمعلم هو الركن الأساس في بلوغ التعليم مقاصده وتحقيق غاياته، وقد كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب وصارت مفاتحه بأيدي الرجال. فلا بد في تحصيله من الرجوع إلى أهله.

غير أنّ أكثر طلابنا اليوم في الجامعات – لاسيما التي تعنى بتدريس العلوم الإسلامية — عزفوا عن الجلوس إلى أساتذتهم لتحصيل العلوم واكتناز مفاتحها، ظنّا منهم أنّ محركات البحث وما ألّفه المعاصرون، كفيل بتحقيق غاياتهم وإبلاغهم المراتب العُلى من العلوم.

فنتج عن ذلك مخاطر ومعضلات، أشدها على الأمة:

1. ضعف التحصيل العلمي لدى الطلاب.
2. العزوف عن دراسة كتب التراث وما حوته من كنوز لصعوبة فهمها.
3. الاعتماد على كتب المعاصرين مما أخلدهم إلى التقليد الذي حجب عنهم التحقيق والابداع والتجديد.

فأين مكمن الداء ؟ أفي المعلم الذي أصبح عاجزا عن استقطاب الطلاب إلى مقاعد الدراسة ولِقَ العلم ؟ أم في مناهج التعليم التي لم تعد مواكبة لمعايير الجودة العالمية ؟ أم في الوسائل الحديثة التي أسيء استخدامها ؟

وهو ما رمت بيانه في هاته الورقة البحثية وفق الخطة الآتية:

المطلب الأول: أهمية المعلم في التحصيل العلمي

المطلب الثاني: التحقيق العلمي وطرق بلوغه

المطلب الثالث: واقع التحصيل العلمي والتعامل مع كتب التراث عند الطلاب وأسباب ذلك

الخاتمة: النتائج والتوصيات

المطلب الأول: أهمية المعلم في التحصيل العلمي:

يعتبر المعلم الركن الأساسي في تكوين الطالب وبنائه المعرفي المتكامل وإصلاح الأمة، ولذلك حظي بمزيد من العناية لدى العلماء والباحثين وقادة الدول المتقدمة قديما وحديثا.

ففي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد رحمه الله، راسل ولاته وأمرهم بالإغداق على العلماء وطلاب العلم ليتفرغوا للتعليم والتأليف والتحصيل، فقال: " فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب الفقه وعمّر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن دمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحره فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء:59] هم أهل العلم " [1].

فازداد العلماء إقبالا على التعلم والتأليف والترجمة وازدهرت البلاد أيّما ازدهار، حتى قال عبد الله ابن المبارك: "فما رأيت عالما ولا قارئا للقرآن ولا سابقا للخيرات ولا حافظا للمحرمات بعد أيّام رسول الله ﷺ وأيّام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيّامه، لقد كان الغلامُ يستبحر في الفقه ويروي الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة " [2].

ولا غرابة في ذلك، فقد كان خليفتهم قدوتهم حيث خَصَّ ليلة من ليالي أسبوعه للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه وكان أعلمهم [3].

وتكمن أهمية العلماء والأساتذة في كونهم القلب النابض لإصلاح شأن الأمة، لقول الإمام ابن باديس رحمه الله: " لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، لأنّ العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءَهم، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم ... " [4].

---

[1]- الإمامة والسياسة لابن قتيبة 157/2.

[2]- المرجع السابق 57/2.

[3]- المرجع السابق 156/2.

[4]- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس 74/4.

ولما كان العلماء ورثةَ الأنبياء والمرسلين [5] بشهادة الصادق المصدوق ﷺ، ويقومون في الأمة مقام النبي ﷺ في التبليغ بأقوالهم وأفعالهم وتقديراتهم كما ذكر الإمام الشاطبي، تعيّن عليهم أن يتحققوا بالعلم الذي يحملونه حتى ينتفع بهم طلابهم على ل وجه، وأمارات ذلك التحقق وعلاماته ثلاث كما ذكر الإمام الشاطبي رحمه الله، وهي [6]:

الأولى: العمل بما عَمِل حتى يكون قوله مطابقا لفعله، فإن كان مخالفا له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في العلم.

الثانية: أن يكون مِمّن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك وهكذا كان شأن السلف الصالح.

وأول ذلك: ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وأخذهم بأقواله وأفعاله واعتمادهم على ما يرد منه، كائنا ما كان، وإن لم يظهر لهم وجه الحكمة كما في قصة سيدنا عمر يوم الحديبية، حيث قال: " يا رسول الله، أسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال: بلى ! قال: أيس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى !قال: ففيم نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ ! قال: يا ابن الخطاب ! إني رسول الله، ولم يضيعني اللله أبدا، فانطلق عمر ولم يصبر متغيظا، فأتى أبا بكر فقال له مثل ذلك. فقال : أبو بكر: إنّه رسول الله ولم يضيعه الله أبدا. قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأرأه إيّاه، فقال: يا رسول الله أَوَفتح هو ؟ ! قال: نعم. فطابت نفسه " [7].

فهذا من فوائد الملازمة والانقياد للعلماء والصبر عليهم في مواطن الإشكال حتى لاح البرهان للعيان.

وإنما نزلت سورة الفتح بعد ما خالطهم الخوف والكآبة لشدة الإشكال عليهم والتباس الأمر. ولكنّهم سلموا وتركوا رأيهم حتى نزل القرآن فزال الإشكال والالتباس.

وصار مثل ذلك أصلا لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية.

---

[5]- رواه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل العِلم على العبادة 2682، وأبو داود في كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم رقم 3641.

[6]- انظر: الموافقات للشاطبي 93/1 – 95.

[7]- رواه البخاري في كتاب الجزرية والموادعة، باب: رقم 3181.

وحسبك من صحة هذه القاعدة أنّك لا تجد عالما اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك.

الثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بأدبه كما عَلِمتَ من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ واقتداء التابعين بالصحابة وهكذا في كل قرن.

وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه، أي: شدة الاتصاف به، وإلا فالجميع مِمّن يهتدى به في ذلك [8].

[8]- انظر: الموافقات للشاطبي 95/1 مع شيء من التصرف.

المطلب الثاني: التحقيق العلمي وطرق بلوغه:

أولا: تعريف التحقيق

أ. تعريف التحقيق لغة: من حقق يُحقق تحقيقا، والحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته.

وتحقق عنده الخبر: صَحَّ وثبت، وحقّق قوله وظنّه تحقيقا، أي: صدقة [9].

ب. تعريف التحقيق اصطلاحا: عرّفه العلماء عموما، بعدة تعريفات:

1/ عرّفه الجرجاني بقوله: " إثبات المسائل بدليلها، والتحقيق بيان الشيء على وجه الحق " [10].

2/ وعرّفه الدكتور عجاج الخطيب بقوله: " الإثبات والإحكام والتصحيح " [11].

✓ فالتحقيق عموما: إحكام لمسائل فنّ من الفنون وإثباتها بدليل.

ولكل أهل فن مدلولهم الخاص لهم، فأهل التجويد لهم تحقيقهم في مراتب التلاوة، وأهل الأصول لهم مدلولهم في تحقيق المناط، وأهل تحقيق المخطوطات لهم مدلولهم الخاص بهم.

والكلّ يتفق على إحكام ما يراد دراسته في ذلك الفن وإثبات مسائله بدليل، وهو ما يعرف اليوم بالعمق العلمي في فهم المسائل في أي فنّ من الفنون.

ثانيا: طرق بلوغ مرتبة التحقيق:

الطرق الموصلة إلى التحقيق العلمي، والتحقق به كثيرة، وأهمها: أخذه عن العلماء المتحققين به. ويكون ذلك بتلقيه مشافهة ومطالعة في الكتب والدواوين التي أحكم مفاتحها عن شيوخه، كما ذكر الإمام الشاطبي وقد انطلق في بيان ذلك من المقدمة الثانية عشر، فقال: " مِن أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقيق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام ... وقد قالوا: إنّ العلم كان في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب وصارت مفاتحه

---

[9]- انظر: لسان العرب، معجم مقاييس اللغة، مختار الصحاح مادة "حقق".

[10]- التعريفات للجرجاني ص 79.

[11]- أصول التحقيق بين النظرية والتطبيق، بحث نشر في كتاب صناعة المخطوط العربي الإسلامي من الترميم إلى التجليد ص 350.

بأيدي الرجال ... وأصل هذا في الصحيح « إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء » [12] فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك " [13].

ثم بيّن الطريقتين، فقال: " وإذا ثبت أنّه لابد من أخذ العلم عن أهله، فلذلك طريقان [14]:

أحدهما: المشافهة: وهي أنفع الطريقتين وأسلمهما لأوجه:

الطريق الأول: فَتح ما أُغلق فهمه ورفع ما أشكل، وهو ما عبّر عنه الشاطبي بقوله: الأول [15]: لخاصية جعلها الله بين المعلم والمتعلم، يشهدها كلّ من زاول العلم والعلماء، فكم مِن مسألة يقرأها المتعلم في كتاب ويحفظها ويرددها على قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بها بالحضوة، وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن أحوال وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المعَلّم ظاهر الفقر بادي الحاجة إلى ما يُلقى إليه. وهذا ليس ينكر، فقد نبه إليه الحديث الذي جاء فيه « أنّ الصحابة أنكروا أنفسهم عندما مات رسول الله ﷺ » [16] وحديث حنظلة الأسيدي حين شكا إلى رسول الله ﷺ إنهم إذا كانوا عنده وفي مجلسه كانوا على حالة يرضونها، فإذا فارقوا مجلسه وعافسوا الأزواج والأولاد واشتغلوا بدنياهم تغيّر حالهم ونسوا كثيرا !

فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات » [17].

والثاني: التدرج مع الطالب في تحصيل مسائل العلم وبلوغ مراتبه، وهو الأنفع للطالب، لقول العلامة ابن خلدون: " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيد إذا كان على التدرج شيئا فشيئا وقليلا فقليلا، يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية ضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم

---

[12]- رواه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم رقم 100.

[13]- انظر: الموافقات 1/91-92.

[14]- المرجع السابق 1/96-98.

[15]- الموافقات 1/96.

[16]- لقول سيدنا أنس: " لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنا في دفنه حتى أنكرنا قلوبنا " رواه الترمذي في كتاب المنافق رقم 3618.

[17]- رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة رقم 2750، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في التذكير بالنار والجنة رقم 2514.

يرجع له إلى الفن ثانية فيرفعه في مستوى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف فتجود به ملكته، ثم يرجع به وقد شذا، فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته " [18].

- ففي علم الفقه يبدأ بمتن الأخضري ثم الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ثم متن الإمام خليل وأهم شروحه.
- وفي علم النحو، يبدأ بالأجرومية، ثم يتدرج في كتب ابن هشام شرح قطر الندى وبل الصدى، فشذور الذهب انتهاء بغني اللبيب وهكذا سائر العلوم والفنون.

الثالث: المعلم ينفخ في الطالب روح العلم ويرشده إلى العمل به بسلوكه قبل مقاله، وهو ما كان عليه سلف الأمة وخلفها.

1. عن عثمان وابن مسعود وأبيّ: " أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمهم القرآن والعمل جميعا " [19].
2. وكان عبد الله بن مسعود يقرئ السورة ويفسرها عامة نهاره [20]، وكان يرشد كلّ مَن يقرأ عنده إلى العمل بما جاء فيها، لما ورد عنه أنّه كان إذا أصبح أتاه الناس في داره، فيقول: مكانكم، ثم يمر بالذين يقر\هم القرآن، فيقول: أيا فلان بأي سورة أتيت ؟ فيُخبره في أيّ آية، فيفتح عليه الآية التي تليها، ثم يقول: تعلمها فإنها خير لك مِمّا بين السماء والأرض ثم يمر بالآخر فيقول مثل ذلك حتى يقول ذلك لكلهم " [21]. وقولها : " تَعَلَّمها "، أي: تدبرها واعمل بها.
3. وقال الإمام ابن باديس وهو يُفَسِّر حديث رسول الله ﷺ « خيركم من تعلم القرآن وعلّمه » [22] –قال– وإنما تثبت له هذه المزية، لأنّ المراد من متعلمه: من حفظه وفهمه وعمل به، والمراد من مُعلّمه: من يلقنه غيره ويفسره له ويرشده إلى العمل به، وإذا كان هذا هو الممدوح في الحديث المفضّل على غيره بشهادة الصادق المصدوق، مفقودا بيننا أو كالمفقود فالواجب علينا السعي في تكوين .. " [23].

---

[18]- مقدمة ابن خلدون.
[19]- رواه الداني بسنده في كتاب البيان ص 134.
[20]- انظر: تفسير الطبري 36/1.
[21]- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 170/7 وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقاته.
[22]- رواه البخاري في فضائل القرآن، باب جمع القرآن رقم 480.
[23]- مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص 203.

الرابع: مجالس العلم مليئة بالخيرات والبركات، فمن جلس فيها للتعلم نزلت عليه السكينة وغشيته رحمه الله وحفته الملائكة وذكره الله فيمن عنده، لما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » [24] ومن أكرمه الله بالرحمة والسكينة ودعاء الملائكة ببركة حضوره مجالس العلم، فتح اعليه بنور الفهم ورزقه العمل.

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، وهو نافع في بابه بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله ما يتم له به النظر في الكتب. وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، أو راجع إليه، وهو معنى قول من قال: "كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا دون فتح العلماء.

الثاني: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد، فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين، وأصل ذلك التجربة والخبر.

أ. أما التجربة: فهو أمر مشاهد في أي علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما بلغه المتقدم، وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي أو نظري، فأعمال المتقدمين في إصلاح دينهم ودنياهم، على خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في التحقيق أقعد فتحقق الصحابة لعلوم الشريعة ليس كتحقيق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن، ومن طالع سيرهم وأقوالهم وحكاياتهم أبصر العجب في هذا المعنى [25].

وما ذكره الشاطبي هو الغالب، وقد يفتح الله على المتأخر ما لم يفتحه

ب. وأما الخبر، فقد ذكر نصوصا كثرة، منها:

1/ حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: « خيركم قرني ثم الذيم يلونهم ثم الذين يلونهم » [26] وفي هذا إشارة إلى أنّ كل قرن ما بعده كذلك.

---

[24]- رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم 2699.

[25]- الموافقات 97/1.

[26]- رواه البخاري.

2/ قوله النبي ﷺ : « أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة ثم ملك وحبرية ثم ملك عضوض » [27] ولا يكون هذا إلا مع قلّة الخير وتكاثر الشر شيئا بعد شيء.

3/ قوله ﷺ : « إنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء [28] وفي رواية: كَنِ الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس » [29].

4/ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: " ليس عام إلا الذي بعده شرٌّ منه لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم، فيهدم الإسلام ويُثْلَمُ " [30] ومعناه موجود في الصحيح : ولكن ينتزعه مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يُستَفْتون فيفتون برأيهم فيضلون ويُضِلون " [31].

5/ لما نزل قوله تعالى: ﴿ اليَومَ أَكمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُم ﴾ [المائدة:3] بكى عمر رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام: « ما يبكيك ؟ قال: يا رسول الله إنا كنّا في زيادة من ديننا فأما إذا كَمُلَ فلم يكمل شيء قطّ إلا نقص ! فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت » [32].

قال الشاطبي: " والأخبار هنا كثيرة، وهي تدل على نقص الدين والدنيا، وأعظم ذلك العلم، فهو إذن نقص بلا شك.

فلذلك صارت كتب المتقدمين وكلامهم ويسرهم أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم، على أيّ نوع كان، وخصوصا علم الشريعة الذي هو العروة الوثقى والوزر الأحمى [33].

---

[27]- انظر: الموافقات 97/1.

[28]- رواه مسلم في كتاب الإيمان باب كيف بدأ الإسلام وكيف يعود رقم 145.

[29]- أخرجه الداني رقم 288، والآجري في الغرباء ½.

[30]- انظر: الموافقات 98/1.

[31]- سبق تخريجه.

[32]- أخرجه ابن أبي شيبة.

[33]- الموافقات 98/1-99.

المطلب الثالث: واقع التحصيل العلمي والتعامل مع كتب التراث عند الطلاب وأسباب ذلك

أولا: واقع التحصيل العلمي والتعامل مع كتب التراث

أ. واقع التحصيل العلمي: لا أظن أنّه يختلف اثنان على ضعف المستوى العلمي عند الطلاب في مختلف التخصصات، والذي يعيننا في بحثنا طلاب العلوم الإسلامية.

ومن خلال خبرتني وتجربتي في تدريس العلوم الإسلامية في الجامعة الإسلامية والكليات الشرعية منذ ما يزيد عن ربع قرن لاحظت عليهم ضعف التكوين والتحصيل في علوم الشريعة منقولها ومعقولها ولغتها التي بها يُفهم النص القرآني والنبوي ودواوين علمائنا الأجلاء المتقدمين حتى أصبح يَعِزُّ علينا أن نجد طالبا أو طالبين في تخصص من التخصصات في مرحلة الماستر قد أوتي مفاتح العلم التي تؤهله للرجوع إلى أمهات ذلك التخصص لقراءتها قراءة متبصر، وهو ما يفترض في طلاب تلك المرحلة.

وحتى تتضح الصورة أكثر أذكر عيّنات عن ذلك من واقع الطلاب في مرحلة الماستر.

1- سألت طلاب الماستر تخصص فقه مالكي وأصوله في أول محاضرة معهم عن المختصر الأصولي والفرعي عند المالكية، فأكثرهم سكت وبعضهم أخطأ الجواب، ثم تكلم أحدهم وقال: مختصر خليل. فقلت له: هذا صحيح، ولكن هناك من سبقه وهو الإمام ابن الحاجب في جامع الأمهات.

2- كنت أدرس في حصة التطبيق مادة القواعد الفقهية، ومن عادتي أن أختار لهم مسائل من كتاب قديم تكملة لما أُخذ في المحاضرة وأكلّف الطلاب بالتحضير المسبق ليتمكنوا في الحصة مِن قراءة النص قراءة صحيحة وفهم ما جاء فيه، وبعضهم كان لا يحضر مِمّا يوقعه في أخطاء جسيمة، فذكرت لهم قصة تربوية عن أهمية التحضير شحذا للهمم، نقلا عن أحد شيوخنا في بلاد الشام ، وهو سيدي العلامة حبنك الميداني رحمه الله قصد أحد علماء اللغة في دمشق ليقرأ عليه كتابا في اللغة، فسأله الشيخ عن الكتاب، فقال الشيخ حسن: أريد أن أقرأ كتاب الملاجامي [34]فقال الأستاذ: الملا جامي ؟ ملا جامي؟ – ويقصد أنّك دون ذلك المستوى لصعوبة الكتاب – فقال الشيخ حسن: اختر لي ما تراه مناسبا يا سيدي. فقال الأستاذ: نقرأ كتاب شذور الذهب.

---

[34]- الفوائد الضيائية، المشهور بـ " مُلاّ جامي " لنورد الدين عبد الرحمن الجامي المتوفي سنة 898 هـ وهو عبارة عن شرح لكافية ابن الحاجب.

فقال الشيخ حسن: يا سيدي هذا الكتاب أدرسه لطلابي؟ فأصرّ الأستاذ على شذور الذهب، واشترط عليه شرطا آخر وهو أن يحضر ويقرأ الدرس قبل أن يأتي اثنتي عشرة مرة؟ فالتزم الشيخ حسن بذلك، وقال: لقد افدت منه كثيرا – أي: بإعادة قراءته على ذلك العالم اللغوي ثم بينت للطلبة الجوانب التربوية في القصة وطلبت منهم أن يلتزموا بالتحضير المسبق وأن يقرأوا النص على الأقل مرة واحدة، ثم توجهت إليهم بهذا السؤال –وهو بيت القصيد– : ما هي المسائل التي ضمّنها ابن هشام في كتابه "شذور الذهب" فقالت إحداهن: مسائل تتعلق بالنساء؟ فهالني ذلك ولم أملك إلا المزيد من النصح وشحذ الهمم.

ب. واقع تعامل الطلاب مع كتب التراث:

الغالب على الطلاب في مرحلة التحصيل وما بعد التخرج في مرحلة إعداد مذكراتهم، اعتمادهم على ما ألفه المعاصرون، مما أخلدهم إلى التقليد وصرفهم عن التحقيق وأخذ العلم من ينابيعه الأصلية من كتب المتقدمين. فأصبحوا لا يرجعون إليها إلا قليلا، لصعوبة فهمها وربما لأسباب أخرى سآتي عليها. وإذا رجعوا إليها فبواسطة، ومنها محركات البحث، مما أوقعهم في أخطاء جسيمة.

وإذا ما طُلب منهم قراءة نصوص المتقدمين والمتأخرين في حصّة التطبيق، قلّ ما يقرؤون النص قراءة صحيحة ناهيك عن فهمه ورفع ما أشكل فيه، بل لا يكاد يخلو قراءة سطر منه دون أخطاء.

واذكر أنني اخترت لطلاب الماستر تخصص فقه مالكي في حصة تطبيق مادة القواعد الفقهية، نصوصا من كتاب القواعد للمقّري للتدرب على فك العبادة، فقال –رحمه الله– : " أما الشافعي فأقل الكثرة عنده القلتان، وقد اختُلِف في تصحيح حديثهما، وقال الغزالي: وهما نحو مِن ثلاثمائة مَنٍ هكذا في الوجيد: مَنٍ كَيَدٍ " [35] فقرأها الطالب: " مَنٌّ كَيْدٍ " فقلت للطالب: ما علاقة هذا الكلام بالقلتين؟ فسكت، ثم بينت لهم المراد، وهو أنه ضبطها على وزن **يدٍ والمَنُ** بالتخفيف والتثقيل: مِكْيَالُ للمائعات مقداره رطلان.

ثانيا: أسباب ضعف التحصيل العلمي والعزوف عن كتب التراث: لأسباب كثيرة، منها ما يرجع إلى تقصير الطلاب، ومنها ما يرجع إلى ندرة الأستاذ الكفء المربي، ومنها ما يرجع إلى القرارات الفوقية التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه، وسأقتصر على أهمها بإيجاز، وهي:

---

[35]- القواعد للمقّري 223/1.

السبب الأول: القرارات الفوقية: الأصل في القرارات التي ترتقي بالتعليم العالي أن تُبنى على اقتراحات الأساتذة في اللجان العلمية وفرق التكوين والمجالس العلمية والندوات الجهوية، فإذا نُكّست القضية جاءت النتائج عكسية، ومن أمثلة ذلك:

1- تطبيق نظام ل.م.د وفرض تعميمه على جميع التخصصات باستثناء العلوم الطبية، ونتج عن ذلك تقليص مدة الدراسة في مرحلة الليسانس من أربع سنوات إلى ثلاث سنوات بالإضافة إلى جذع مشترك في السنة الأولى وآخر في السنة الثانية ؟ فأنى يعرف الطالب للتحقيق العلمي سبيلا؟

2- إلغاء الحضور الإجباري في حصص التطبيق وفي محاضرات الماستر، مِمّا زاد من عزوف الطلاب عن الإفادة من أساتذتهم الذين يعلمونهم ويوجهونهم ويمنحونهم مفاتح الولوج إلى كتب المتقدمين.

السبب الثاني: ندرة الكفاءات العلمية المربية في الجامعات والسبب في ذلك يرجع إلى هجرة الكفاءات والعقول المبدعة، وفي ظل تلك الندرة تصدر للتعليم العالي غير الأكفاء، وعنهم أخذ الطلاب.

وأذكر أنني في سنة من السنوات نسقت مع الأستاذ المطبق في مرحلة الماستر ليختار لهم مسائل من كتاب قديم تكملة لما تلقوه في المحاضرة، فعدل عن ذلك إلى ما هو أيسر عليه.

السبب الثالث: ضعف مناهج التحصيل:

تعتبر المناهج الركن الثاني بعد المعلم، في الارتقاء بالتعليم العالي وصلاح المعلم والأستاذ متوقف على إصلاحها.

والمراد بالمناهج: المواد التي تدرس ومفرداتها وكيفية تدريسها لتؤتي ثمارها:

وقد لاحظت عليها أمور، أهمها:

1. غياب الاعتماد على كتب المتقدمين في المحاضرات عموما وفي حصص التطبيق على وجه الخصوص حيث تحولت في الغالب إلى محاضرات مكررة أو يكلف فيها الطلبة ببحوث، والأصل في حصة التطبيق أن تكون خادمة مكملة للمحاضرة.
2. التكرار الحاصل في بعض المواد والمفردات ما بين مرحلتي الليسانس والماستر، الناتج عن سوء التنسيق وغياب الجدية في إعداد المقررات وتحيينها، وهي مسؤولية يتحملها الأساتذة وفرق التكوين، ومن أمثلة ذلك:

– مادة الفقه المقارن تدرس في الليسانس وتدرس في الماستر، وبالتأمل في مفرداتها نجد مسائل مكررة.

– مادة القواعد الفقهية في مرحلة الماستر تخصص فقه مالكي وأصوله: تدرس في السداسيين، هناك تكرر في بعض القواعد، وفي المقررات الجديدة أُدخلت قواعد على غير مذهب المالكية.

– تخصص الفقه المقارن وأصوله (ماستر2) يدرسون في نفس السداسي مادة دراسات فقهية معاصرة، ومادة فقه النوازل؟ وهما وجهان لعملة واحدة، والأغرب من ذلك أن مادة الدراسات الفقهية المعاصرة مكررة في الكانفا وبمفردات مختلفة، وهذا أمر في غاية الإهمال، ثم نطمح إلى الارتقاء بالتعليم العالي ورفع المستوى العلمي عند الطلاب؟

السبب الرابع: الشواغل الصارفة عن التحصيل: أهم شاغل كان يشغل بالنا يَومَ كنّا طلابا في الجامعة، التحصيل العلمي والتفوق الدراسي.

وأما اليوم، فالطلاب صنفان:

1. صنف ذو همة عالية ولله الحمد، ولكنه بأشد الحاجة إلى مزيد عناية من قبل أساتذته العلماء الفضلاء الربانيين، لينهل من علمهم وأدبهم داخل الجامعة وخارجها.
2. وصنف آخر ولعله الأكثر، تغيّر حاله، وأصبح أكبر اهتمامه جمع المال وتحصيله بأي طريق كان بما في ذلك التسويق الشبكي الذي استقطب واستهوى الكثير من الطلاب والطالبات مما أضعف الهمم وزهّد النفوس في التحصيل العلمي وصيّره أمرا ثانويا، والعلم لن يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فكيف إذا أعطيته بعضك؟

وأصبح همهم أيضا الحصول على الشهادة وإنجاز مذكراتهم بأدنى المواصفات، مقتصرين في ذلك على محركات البحث وما ألّفه المعاصرون، عازفين عن كتب التراث وما ألّفه المتقدمون، لفقدهم مفاتح الإفادة منها، ولولا منحة البطالة لربما انقطع بعضهم عن مواصلة الدراسة؟

ومما أضعف تحصيلهم العلمي أيضا الامتيازات والصلاحيات الزائدة عن الحدّ التي منحت لهم، فاستخدموها في تحقيق مصالحهم الجزئية الخاصة على حساب المصالح الكلية العامة.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات

أولا: أهم النتائج:

1. لا سبيل إلى النهوض بالأمة والوطن إلا بالرسوخ العلمي الذي يبنى على إصلاح المعلم ومناهج التعليم في مختلف أطواره لاسيما التعليم العالي، وإنما يتحقق ذلك بتكاتف جهود الأساتذة والقائمين على الجامعات والجهة الوصية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
2. الأستاذ هو الركن الأساسي في تكوين الطالب وبنائه المعرفي والتربوي المتكامل، لأنّه بمثابة القلب في الجسد، وإذا صلح صلح الجسد كله، والأستاذ المنشود هو من جمع بين التحقيق العلمي والتحقق به، وأمارات ذلك ثلاثة:
   أ. العمل بما علم يكون قوله مطابقا لفعله.
   ب. أن يكون مِمّن رباه الشيوخ في ذلك العلم الذي أخذه عنهم
3. المراد بالتحقيق العلمي في أيّ فنّ من الفنون، إحكام مسائله وإثباتها بدليل، ولا سبيل إلى بلوغ ذلك إلا بطريقين:

الأول: أخذه مشافهة عن العلماء الذين تحققوا به.

الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، على أن يتحقق بشرطين للإفادة منهما:

- فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله ومفاتح ذلك بيد شيوخه الذي تلقى عنهم.
- أن يتحرى كتب المقدمين فإنهم أقعد به من غيرهم من المتقدمين.

4. الطلاب هم أمل الأمة والوطن، وهم ضحايا لعقبات قُصدت وخِطط دُبّرت وإملاءات فرضت، والواجب علينا الترفق بهم ومضاعفة الجهود في تعليمهم وحسن توجيههم وتذليل الصعاب التي تحيط بهم.
5. عزوف الطلاب عن التحصيل العلمي وكتب التراث وما صنعه المتقدمون له أسبابه، منها ما يرجع إلى ضعف هممهم ومنها ما يرجع إلى ندرة الأستاذ الكفء المربي، ومنها ما يرجع إلى مناهج التعليم ومنها ما رجع إلى غياب المحفز.

والواجب تكاتف الجهود لتذليل العقبات.

ثانيا: أهم التوصيات: أوصي بالآتي:

1. التنسيق المحكم الجاد في إعداد المقررات ومفرداتها في مرحلتي الليسانس والماستر والدكتوراه.
2. إعادة النظر فيما يتلقاه الطالب في حصة التطبيق كي يكون خادما ومكملا للمحاضرة.
3. اعتماد كتب المتقدمين في حصص التطبيق لتكون دُربة للطالب من أجل الرجوع إليها والإفادة منها في تكوينه العلمي وبحوثه.
4. وضع معايير علمية دقيقة في إعداد المطبوعات البيداغوجيا والمراجع الجامعية.
5. توفير الوسائل التقنية الحديثة للأستاذ والطالب من أجل الارتقاء بالبحث العلم
6. إنشاء كراسي علمية تعني بتدريس كتب المتقدمين والمتأخرين على مستوى الجامعة والمخابر.

والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات

وكتبه راجي عفو ربه

أ.د/ محمد بوركاب